زكريا الحجاوى..

صياد اللؤلؤ

مجـــذوب فى الحضــرة المصرية.. يرتشــف الصبابــة والجوى.. هو «الشــيخ» الذى تدور فى فلكه بلابل الشــدو الشجى.. هو «المريد» الذى يــدور فى أفلاك النغمات البكر.. هو المجذوب من «أهل الخطوة» يحلق بجناحى الإخلاص واللهفة.. يحفر خارطة الوطن على خلاياه.. يجوب القرى والنجوع.. يغوص فى عمق أعماق الشخصية المصرية.. يتلو أوراد الانتماء العاشــق.. فيفيض عليه الوطن بأســرار أســراره ليحيا دوما فى مســارات الكشف والتنوير.. يغرس النجوم على دروب العتمة.. فيتحلق به أوركسترا النور.. ليعزف ألحانا مصرية.. تحمل الشريط الوراثى لهذا الشــعب المبدع والمقــاوم.. الذى يتمترس خلف إبداعــه الجمعى وتراثه الشــعبى كلما هاجمته جحافل الظلم والإظلام.. واســتطاع ذلك الصوفى المجذوب أن يفك كل رموز الشــفرة الوراثية المبدعة للشــعب المصرى.. ليقدم لنا خريطة إبداع الشعب الذى يأبى الهزيمة والانكسار ويرفع دوما رآيات المقاومة بالسلاح أو بالأغنية والموال.

شيخ مشايخ الفنون الشعبية المصرية.. زكريا الحجاوى الذى استطاع بعــد جهد خارق أن يضــع الفنون الشــعبية على قمة خارطــة الثقافة المصريــة.. بعد أن حصل على الاعتراف الرسمى والشــعبى بقيمة وقامة هذه الفنون الرفيعة.

زكريا الحجاوى.. حدوتــة مصرية.. كوكتيل مواهب.. كان بإمكانه أن يجلس منفردا على القمة فى السياســة والأدب والصحافة والدراسات الأدبية ولكنه ترك كل هذه القمم ليغوص فى قاع المجتمع ليستخرج منه اللآلئ والجواهر الثمينة..

ولـد ذكريا الحجاوى فى المطريـة دقهلية على ضفاف بحيرة المنزلة عـام ١٩١٤م.. وكان والده أحد أثرياء المطريـة وتمتد جذوره إلى مدينة العريش فى شمال سـيناء.. بينما تمتد جـذور الأم إلى مدينة منيا القمح فى الشـرقية.. وكان الوالد عبدالرحمن الحجاوى تاجرا ميسـور الحال ومشـهورا بالكرم والشـهامة.. ويمتلك بيتا كبيرا يجتمع فيه أهل البلدة لأنـه الوحيد الذى يمتلك «جهاز جرامفون» ومجموعة من الاسـطوانات الغنائية لجميع المطربين والمطربات.. وكان الأب يعشـق سـيد درويش وسـلامة حجازى، ومنيرة المهدية.. ونشـأ الطفـل زكريا فى هذا الجو الملىء بالسـمع، خاصة وأن عشـرات المداحين الشعبيين كانوا يهبطون على المطرية أثناء موسـم الحج.. وكان زكريـا يطلب من والديه إحضار هؤلاء المداحين إلى البيت ليجلس يستمع إليهم بالساعات.. وعشق بشكل خاص أداء «عم مرسى» شاعر الربابة.. وكانت والدته حافظة للكثير من الحكآيات الشـعبية فاستمع منها إلى أول ملحمة فى حياته وهى ملحمة «وداعة» التى تقول فى جزء منها:

يا نجومـى يا نجومـى ساهـرة .. قولوا لأمى وداعة صبحت جارية

والتحـق زكريا بالمدرسـة الابتدائيـة فى مدينة بورسـعيد وأقام بها وكان يعود إلى المطرية مع نهاية كل أسـبوع عبر بحيرة المنزلة بالمركب الذى كان يقوده شـاب اسمه إبراهيم يمتلـك صوتا رائعا، يقضى ثلاث سـاعات هى مدة الرحلة فى غناء المواويل.. واستطاع فى نهاية الدراسة الابتدائية أن يحصل على المركز الأول على مديرية القنال.. «بورسـعيد

– الإسماعيلية» ليفوز بجائزة الملك فؤاد للمتفوقين وهى ٤٠ جنيها ذهبا وساعة كبيرة من الصينى احتفظ بها طوال حياته.. وانتقل بعدها إلى مدينة السويس ليلتحق بالمدرسة البحرية وكأنه على موعد مع البحر، فمن المطرية إلى بورسعيد إلى السويس التى قضى بها عامين فقط لينتقل بعدها إلى القاهرة ويلتحق بمدرسة الفنون والصنايع الملكية والتى تحولت بعد ذلك إلى كلية الهندسة.. وكان زكريا قد التحق فى سن مبكرة بفرقة أحمد المسيرى.. وهو فنان شعبى أصيل قدم العديد من المسرحيات عن صلاح الدين الأيوبى وروميو وجولييت وهارون الرشيد، تلك الفرقة التى كانت بمثابة معهد الفنون لزكريا الحجاوى لينطلق من خلالها إلى عالم الفن حيث قام بتأليف أول أوبريت فى حياته وهو فى سن الثامنة عشرة عن مشاكل الصيادين ولحن أغانى الأوبريت وأخرجه وقام ببطولته..
وكان معه فى فرقة المسيرى محمود الشريف الذى أصبح بعد ذلك موسيقارا كبيرا.. وفى القاهرة وأثناء دراسته بمعهد الفنون والصنايع انغمس زكريا الحجاوى فى الحركة الوطنية المصرية، وسرعان ما تحول إلى رمز من رموز هذه الحركة بعد أن تحول إلى زعيم للطلبة حيث كان دائم النشاط السياسى ويقود المظاهرات ضد الملك والإنجليز.. واستمر هذا الوضع طوال فترة الثلاثينيات، وكان الحجاوى يذكر هذه الفترة بكثير من الفخر ويروى عن محاوراته الحماسية مع وزير المعارف فى ذلك الوقت «العشماوى باشا» ولم تكن هذه الروآيات تخلو من المبالغات الطريفة التى اشتهر بها الحجاوى طوال حياته.. وبعد أن برز دور الحجاوى فى قيادة مظاهرات الطلبة قرر النحاس باشا اعتقاله وتحديد

إقامته في بلدته مما أضاع عليه دخول الامتحان النهائى فلم يحصل على الدبلوم حتى نهاية حياته.. وكأن النحاس باشا على عداء مع المثقفين فقد سبق له اتهام بيرم التونسى بمحاولة اغتياله فى باريس ولم يكن هذا حقيقيا.

وقد تزامل الحجاوى فى العمل الوطنى مع د. يس عبد الغفار أستاذ الكبد الأشهر والفنان محمد على طاهر والصحفى عبد العزيز خميس.

وبعد تحديد إقامته في بلدته قرر الزواج من أرملة شقيقه - السيدة أمينة الريس - الذى رحل وترك ثلاث بنات وكان الحجاوى يطلق على زوجته لقب القديسة كما استثمر فترة تحديد الإقامة فى كتابة العديد من الأعمال لفرقة المسيرى وفرقة أوبرا ملك.

وعندما تأكد من أنه لن يستطيع الحصول على مؤهله الدراسى قرر تغيير مسار حياته فاتجه إلى عالم الصحافة ليستثمر ملكاته ومواهبه فى الكتابة والتأليف.. وبدأ بالكتابة فى العديد من الصحف والمجلات مثل: المقطم - الزمان - الوادى - وفى الوقت نفسه عين لبعض الوقت موظفا فى الإدارة الهندسية بمدينة الجيزة واختار السكن فى حارة رابعة بالجيزة وقد بدأت مسيرته الصحفية الحقيقية فى الثلاثينيات بالكتابة فى العديد من الجرائد والمجلات مثل روزاليوسف والرسالة.. حيث كتب مجموعة من الدراسات عن الفن الشعبى فى مجلة «الرسالة».. ومع بداية الأربعينيات التحق بالعمل فى جريدة المصرى وأصبح سكرتيرا لتحريرها وأظهر قدرات فائقة فى الإخراج الصحفى وقدرات أكبر فى اكتشاف المواهب الشابة واحتضانها حيث كان يعقد يوميا مجلس

التحرير ولمدة نصف ساعة فقط يشحن خلالها شباب المحررين بطاقات لا نهائية من الثقافة والمعرفة بعد أن يطلعهم على كل الأخبار والأحداث وكان يعمل على حل مشاكل المحررين الشبان مهما كانت صعوبتها.

وفى المصرى كان يكتب مقالا بعنوان «أنابيش».. واستمرت علاقته بجريدة المصرى حتى عام ١٩٥٢م.. كتب خلالها مجموعة مقالاته البديعة عن سيد درويش لينضم بعدها إلى الكتيبة التى أسست جريدة الجمهورية فى ١٩٥٣/١٢/٧م وبعد أن وقفت الجمهورية على قدميها كان القرار الأول فصل زكريا الحجاوى.. ليذهب بعدها إلى جريدة القاهرة التى كان يرأس تحريرها حافظ محمود، والذى عاش دوما يشيد بقدرات الحجاوى الصحفية التى كانت كفيلة بأن تضعه على قمة الصحافة العربية.. وفى القاهرة اكتشف الحجاوى مواهب وقدرات الشاب صلاح جاهين الذى ضمه أولا ليعمل فى سكرتارية التحرير ثم قدمه كفنان واعد للكاريكاتير. وكان الحجاوى موهوبا فى جلب الأخبار شديدة الأهمية والحساسية.. وقد أدى أحد هذه الأخبار إلى هجره لعالم الصحافة.. حيث أكد الكاتب الراحل حافظ محمود أنه فوجىء ذات يوم بجهة سيادية تسأل عن أحد الأخبار ومن مصدره وكيف وصل إلى الجريدة.. وأن مندوبهم سيأتى للجريدة للتحقيق وكان الحجاوى هو صاحب الخبر.. فطلب منه حافظ محمود تمزيق أصل الخبر ومغادرة القاهرة الصحيفة والمدينة لعدة أيام.. فذهب إلى الصعيد لتخطفه النداهة ولتبدأ رحلته المبدعة مع الفن الشعبى.. ولكن قبل أن نغوص مع الحجاوى فى تفاصيل هذه الرحلة نتوقف عند أدبه شعرا ومسرحا وقصة.. حيث

كتب الحجاوى الكثير من الأشعار الجميلة ذات الحس الصوفى والتى تضعه بين كبار الشعراء ولكنه لم يجمعها فى ديوان.. كما كتب فى عام ١٩٤٦م مسرحية بجماليون والتى سبق بها توفيق الحكيم.

أما فى عالم القصة القصيرة فقد كان الحجاوى الرائد الأول للواقعية فى الوطن العربى.. وإذا كان «جوجول» فجر الواقعية فى تاريخ الأدب الروسى فإن الحجاوى هو فجر الواقعية فى تاريخ الأدب العربى حيث نقل القصة القصيرة من العاطفية والرومانسية إلى الواقعية ليتحول الأدب على يديه إلى «ميكروسكوب» يعرض مشاكل الناس من غير أن تفقد القصة جمالها وسحرها الفنى.. واختار أبطال قصصه من الجزمجية والشيالين وعمال التراحيل وكان ينشرها على الصفحة الأخيرة من جريدة المصرى.. ويعد الحجاوى المقدمة الحقيقية والمنطقية لمجيء يوسف إدريس.. وقد كتب الحجاوى عشرات القصص البديعة نشر بعضها فى كتاب «نهر البنفسج» ثم توقف نهائيا عن كتابة القصة فى عام ١٩٥٠م ليخسر الأدب العربى موهبة عملاقة.

هرب الحجاوى من القاهرة إلى الصعيد لتتفتح أمامه كل أبواب الشخصية المصرية الحقيقية.. بعد أن انغمس بكليته فى أعماق الفن الشعبى.. ولم يكن الحجاوى أول من اهتم بالفنون الشعبية فقد سبقه الكثيرون مثل المؤرخ الإنجليزى «إدوارد لين» والذى عاش فى مصر ٢٥ سنة كتب فى نهايتها مجلدا ضخما فى عام ١٨٦٠م يحوى فنون الشارع المصرى وعادات وتقاليد الحارة حيث تكلم عن القرداتى وآكل النيران والراوى والغازية والحاوى والأراجوز وخيال الظل والغناء

الشــعبى.. كما كان أحمد رشدى صالح صاحب الفضل فى الكشف عن كنز الفن الشــعبى وجذب انتبــاه المثقفين إليه.. كما كان د. عبدالحميد يونس صاحب الفضل في الحصول على الاعتراف الأكاديمى بقيمة وقامة الفن الشعبى.. كما كان بيرم التونسى صاحب الخطوة الأولى والريادة فى تقديم ملاحمنا الشــعبية عبر الإذاعة المصريــة عندما قدم ملحمة الظاهر بيــبرس.. وبرغم أهمية كل هــؤلاء الرواد إلا أن الحجاوى يظل صاحب الفضل الأول فى نشــر الفن الشعبى على مســتوى الشعب كله وتوسيع دائرة الاهتمام به لتشمل كل طوائف الشعب بما فيها النخبة المثقفة.

ويكفى الحجاوى أنه قد رفع الفنان الشــعبى من قاع الاســتجداء إلى قمة النجومية من خلال اكتشــاف وتقديم العديد من الفنانين الشــعبيين مثــل: محمــد طــه - أبو دراع - خضرة محمد خضر - يوســف شــتا القليوبى - فاطمة سرحان - جمالات شيحة - شمندى القناوى - شوقى القناوى.. إلخ حيث ألزم نفسه منذ البداية اكتشاف الموهوبين أو الواعدين بالموهبة وتقديمهم فى أفضل صورة.. وإذا كان الصوفية يقولون «من ذاق عــرف» فقــد انطلق الحجاوى بعد أن ذاق حلاوة الفن الشــعبى ليطوف بلدان مصر من أقصاها إلى أقصاها ليكتشف الألحان والقصص والأصوات والأصالة من خلال رحلات «الكشــف العبقرية».. وقد استثمر الحجاوى المنــاخ العام الإيجابى الــذى أوجدته ثورة يوليــو ١٩٥٢م بقيادة جمال عبدالناصــر.. ذلك المناخ الذى رفع راية العدالة الاجتماعية بكل صورها وأشكالها.. لتصبح قيمة الإنسان بما يملكه من مواهب وقدرات وليس بما يملكه من أحساب وثروات.. خاصة وهو صاحب نزعة وطنية وإحساس

شــعبى ومواهب خاصة دفعته للبحث عن كنوز الفن الشــعبى.. وقد بدأ رحلتــه مدعوما بالعديــد من الرموز مثل فتحى رضــوان أول وزير ثقافة فــى حكومة الثــورة وأيضا يحيى حقى رئيس مصلحــة الفنون.. حيث التحق فى عام ١٩٥٤م بالعمل فى مصلحة الفنون.. فانطلق ليعمل «مسح جغرافى» للفنون الشعبية فى كل مصر.. فكان يختفى فجأة ويظهر فجأة ومعــه طبال أو زمار أو فلاحة ذات صوت جميــل.. ففى الصعيد التقى «ناعسة» أعظم مغنية للمواويل وانبهر بها وعاش قريبا منها قرابة الثلاث سنوات حيث طاف معها كل الصعيد لجمع التراث من منابعه الأصلية..

ولم يكن الحجاوى مجرد باحث عاشــق للفن الشــعبى ولكنه مارس كل ألوان الفن الشــعبى فــكان يغنى ويرقص ويلحن ويمثل ويشــرح الفنون الشــعبية والأســاطير.. ولم يكن يرى الفن الشــعبى مجرد أغان جميلة وأصيلة ولكنه كان يتعامل مع هذا الفن على أنه لســان حال الشــعب.. حيث رأى فى الشــعراء المصريين من عهد الفاطميين إلى ســنة ١٩٥٢م مجرد شــعراء للسلطة بينما رأى فى المداحين «شــعراء الشعب».. وأكد على أن هؤلاء المداحين قد ســجلوا كفاح مصر ضد الصليبيين وكل الغزاة الآخرين.. وتحول الحجاوى إلى «خبير مناجم» يغوص فى باطن الأرض بحثا عن المعادن النفيســة.. حيث كان يغوص فى باطن القرى والنجوع لاكتشــاف الأصوات الذهبية التى تفوق فى قيمتها كل المعادن النفيسة.. وتحولت موالد الأولياء والصالحين فى كل ربوع مصر إلى مناجم حقيقية يبحث فيها الحجاوى عن الجواهر الكريمة من المداحين والعازفين.

ولم يكتــف الحجاوى بلذة الكشــف والاكتشــاف التــى تملأ الروح والوجدان بأرقى المتع والأحاســيس.. ولكنــه واصل دوره ليضيف متعة العقل من خلال التنظير والتحليل حيث رأى فى الفن الشــعبى منهجا لتفســير التاريخ وأداة لكشــف تزييف التاريخ الرسمــى وكاميرا لتصوير التاريــخ الحقيقى.. وأكد على أن الفن الشــعبى هو «مســودة الحضارة» وعلى الأجيال الجديدة أن تعيد كتابة هذه المســودة بخط واضح.. وأكد على أن الفن الشــعبى يزدهر دوما فى أحط العصور وضرب مثلا بالعصر الفاطمــى ففى ذلك العصر عانى الشــعب الظلم وعندما جاء بعض القادة وناصروا الشــعب مثل بدر الجمالى قائد جيوش المســتنصر الحاكم الظالم حيث انحاز بدر إلى الشــعب وأقنع المستنصر فى مرضه بإعادة الأراضى للشعب فلما تعافى الخليفة استولى على الأرض مرة أخرى فقال الشعب قولته الشهيرة «كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا».

مــن الصعيد انتقل الحجــاوى إلى كل أرجاء مصــر حيث عاش فى ســيناء ثلاثة أشهر على جبل الزغابة يســمع ملحمة عن سيدنا يوسف فيها ألحان مصرية وشــامية ومغربية.. واكتشــف ملحمتين تضربان فى عمق التاريخ وتقومان على كراهية اليهود والحث على حربهم.. وقد نتج عن رحلاته الكثيرة جمع ٧٢ ملحمة شــعبية كان يحلم بتسجيلها حتى يحفظها للتاريخ.. كما كان يحلم بوجود مســرح للفن الشعبى تقدم عليه تلك الملاحم.. كما كان يحلم بأن يجعل لكل محافظة أغنية شعبية نابعة مــن تراثها.. كما كان يحلم بتصدير تراثنا الشــعبى إلى العالم من خلال

الاسـطوانات لكى ترقص عليها الفرق الأجنبية.. وفى هذا الإطار جمع عشـرات الرقصات من الصعيد وبحـرى.. حيث تعامل مع الرقص كفن عظيم يغسل الروح من الهموم والأحزان مثله مثل حركات الذكر.

وقد سـهل من مهمة الحجاوى فى تجوالـه بكل ربوع مصر إجادته لـكل اللهجات المصرية: «بدوية – صعيدية – نوبية – بحراوية – مدن القناة».. ولذلك كان يكتشف بسهولة إلى أى منطقة ينتمى المثل الشعبى أو الأغنيـة وكان حريصا على كشـف كل جوانب الشـخصية المصرية من خلال قراءة التراث الشـعبى.. فكتب التاريخ تقـدم القادة والزعماء بينما الأدب والفن الشـعبى يقدمان الشعوب.. ومن هذا المنطلق نستطيع التأكيد على أن عبدالناصر قاد ثورة سياسـية واجتماعية باسـم الشعب ولصالح الشعب.. وفى المقابل قاد الحجاوى ثورة ثقافية لإبراز تراث هذا الشـعب.. فحرص على أن يعمل مسـحا جغرافيا لكل الفنون الشعبية: الرقـص – الغناء – المواويـل – البكائيات – الأراجوز – خيال الظل – السـامر – الألعاب – الحواديت – الأساطير – الموالد – الأفراح.. إلخ، واستطاع من خلال إيمانه بقيمة رسالته أن يزيل النظرة الاستعلائية من المثقفين للفنون الشـعبية.. وقد ارتكزت خطته لتقديم هذا الفن الشـعبى على ثلاث ركائز هى: التعريف بهذا الفن ثم إشـراك الفنانين الشعبيين فـى أعمال كثيرة بالإذاعـة والتليفزيون وأخيرا تقديم الملاحم الشـعبية كاملة على المسرح.. ومن خلال هذه الخطة استطاع إنقاذ الثقافة الشعبية مـن اغترابهـا.. بل إنه أحيـا بعض الفنون التـى كادت أن تندثر مثل المزاهـيرى وأولاد رمـز: فالمزاهيرى فنان صعيدى يمشـى ومعه زوجته

أو ابنته وفى يده «مزهر» وفى يدها «تار» أكبر من الغربال وأى شىء يراه هــذا المزاهيرى يؤلف عليه «يرتجل» ويغنى له فورا.. أما أولاد رمز فهم يمثلون المســرح الغنائى البدائى فهم عائلة لها زى خاص يعيشــون فى مدينة رشــيد أو قراها وجميعهم يحملون الطبل ويقدمون فنهم من خلال مسرح متكامل الأركان حوارا وغناءً.

ولم يترك الحجاوى طريقا لنشــر رســالته إلا وســار فيه فأنشأ أولا فرقة الفلاحين عام ١٩٥٧م ثم أنشــأ فرقة الآلات الشعبية عام ١٩٦٥م وفرقــة فنون الشــارع والحارة وفرقــة الرقص الشــعبى التلقائى وفرقة التراث القومى والشعبى.. وبينها أقام فى عام ١٩٦٠م مهرجان الفنانين الشعبيين الذى استمر لمدة ثلاثة أشهر.. كما كان صاحب فكرة القوافل الثقافية التــى تجوب المحافظات.. وأيضا كان صاحب فكرة ســرادق الحسين الذى يقام فى شهر رمضان من كل عام.. وحقق شهرة عظيمة، كل هــذا بجهد فردى بينما هيئات وزارة الثقافة الآن تفشــل حتى فى تقليد خطى الحجاوى.

وقد لجأ فى فترة مبكرة من مسيرته إلى الإذاعة وكانت أولى مسلسلاته بعنــوان «العقد اللولى» وبعدها كتب ١٢٠ مسلســلا منها البوليســى مثل «راحــت مع التيار» ومنهــا الاجتماعى مثل «إجــازة صيف – إنصاف – أجراس الشــك» ومنها التاريخى مثل «ســت الملك – وراء الأســوار» ومعظمها من الفن الشعبى مثل «سعد اليتيم – كيد النسا – أيوب المصرى – ابن عروس – أنس الوجود – عطشان يا صبايا – ملاعيب شيحة».. وفى مسلسلاته الشعبية عشرات الألحان الشعبية الجميلة ففى ملاعيب

شـيحة وحدها ٤٠ لحنا شـعبيا وفى مسلسـل «الحب فى بلد الأصول» استعرض الفنون الشعبية فى كل محافظات مصر.

وكان الحجـاوى يكتب المسلسـل وأغانيه ويضـع ألحانه ويصحح اللهجات للممثلين.. حيث دخل بمسلسـلاته كل المجتمعات المصرية: «الصياديـن - الفلاحين - البحارين - المراكبية - أصحاب السـوابق» وكان أول من ابتكر المقدمة والنهاية الغنائية للمسلسلات.. ومن الغريب أن إحـدى هـذه المسلسـلات كادت ترمى به إلى السـجن عندما كتب مسلسـلا عن ملك فرعونى ظالم فى إسـقاط واضح على الملك فاروق فتم تقديمه إلى المحاكمة، ولكن الفنان سيد بدير مخرج المسلسل قام بتحطيم الاسطوانة ليخفى جسم الجريمة.

وبعد أن ملأت إبداعات الحجاوى موجات الأثير فى الإذاعة المصرية انتقل إلى التليفزيون ليقدم العديد من المسلسلات مثل رقص ودماء، وكان أول من قدم المسلسـل الغنائى الاستعراضى.. وذلك بالتوازى مع المسرح ويكفيـه أوبريت ياليل ياعين الذى قدمه بدعم من الأديب الكبير يحيى حقـى رئيس المجلـس الأعلى للفنون والآداب فى ذلـك الوقت ليحول الغنـاء من التخت إلى الدراما وقامت ببطولته نعيمة عاكف ومحمود رضا وأخرجه زكى طليمات، وانتقل من الدراما إلى الأحاديث الثقافية حيث كان له حديث أسـبوعى فى الإذاعة اسـتثمارا لـ«كاريزما الحكى» التى يتمتـع بها فقد كان واحـدا من زعماء دولة الـكلام إن لم يكن زعيمها الأول ويشاركه فى ذلك الشاعر الكبير كامل الشناوى.. وإن كان اهتمامه وانغماسـه فـى الحكى والكلام قـد ضيع على المكتبة العربية عشـرات

الكتــب التــى كان يقدر على كتابتهــا لو تفرغ لها.. ومن المؤســف أن مريديه لم يسجلوا له تلك الجلسات التى كانت تقام على مقهى عبدالله بالجيــزة والتى كان الحجاوى محورهــا والمتحدث الوحيد فيها انطلاقا مــن كونه «أكاديمية معــارف» وحكاء لا تمل الأذن مــن سماعه.. ومن الإذاعة والتليفزيون والمسرح انطلق إلى السينما حيث كتب فيلمى: أدهم الشرقاوى وســيد درويش.. وكان قد بدأ فى جمع سيرة أدهم الشرقاوى عام ١٩٤٩م ولكنه لم يكن راضيا عن الشكل النهائى للفيلم.. وكانت له دراســات متعمقة عن ســيد درويش ولديه كتاب عن هذا الفنان العبقرى للأســف لم ير النور، والغريب أنه كان شــديد الشبه بسيد درويش كما كتب الحوار لمجموعة من الأفلام أبرزها «أحبك يا حسن» لنعيمة عاكف وكان الحجــاوى صاحــب الفضل فى ظهور فرقة رضا للفنون الشــعبية حيــث قدمها فى أوبريــت ياليل ياعين، وبرغم ذلــك لم تكن رقصات الفرقة تعجبه حيث يرى أنها تقدم رقصات قوقازية ولأنه ضد «مسرحة» الرقص الشعبى وضد الحذف والإضافة والتعديل فى كل الفنون الشعبية ويرى أن تقدم كما هى «بعبلها».. وقد أيد مؤتمر الفنون الشــعبية لدول البحر المتوســط والذى عقد عام ١٩٧٤م رأى الحجاوى فى ضرورة تقديم الفن الشعبى كما هو..

وكما كان الحجاوى يعشــق الغناء الشــعبى كما هو بلا أية إضافات أو محاولات للتجميل فإنه كان يعشق «المرأة البلدية» بلا أى تجميل وربما لهذا انبهر بالفنانة الشــعبية خضرة محمد خضــر لأنها النموذج الأمثل للصوت الشــعبى الأصيــل والعفى، وهى أيضا النموذج للمرأة الشــعبية

بكل تفصيلاتها.. حيث تنتمى خضرة إلى كوم حمادة بالبحيرة وقد رآها الحجاوى لأول مرة مع والدها فى مولد أبوهريرة بالجيزة وكانت فتاة صغيرة لها صوت مبهر.. وبعد سنوات قليلة تزوجت خضرة من «جزار» متخصص فى ذبح الجمال وفى الوقت نفسه جذبها الحجاوى إلى عالمه بقوة فكانت نجمة كل حفلاته فخيرها زوجها ما بين الفن والبيت فاختارت الفن.. وفور انتهاء شهور عدتها تزوجها الحجاوى فى زفة شعبية رائعة بشوارع إمبابة حيث ارتدى الحجاوى الجلابية البلدى واللاسة.. وقضى العروسان شهر العسل فى جولة فنية بالموالد فى كل ربوع مصر.. وبعد فترة علم أولاده بقصة زواجه من خضرة فهددوه بعدم دخول الامتحانات إلا بعد أن يطلقها وكان الحجاوى قد اكتشف أن العلاقة الفنية أقوى من العلاقة الزوجية فقرر الانفصال فى طقس شعبى نادر وغريب حيث شرب كل منهما من دم الأخر وذلك بجرح إبهام كل منهما على أن يمص كل منها دم الآخر ليصبحا «أشقاء بالدم».. والغريب أن الحجاوى استطاع أن يقنع الزوج الأول لخضرة إعادتها إلى عصمته بزعم أنها تحبه.. أما الحجاوى نفسه فقد لجأ إلى الحيل الشعبية للإفلات من المحاكمة العائلية حيث ادعى عند عودته إلى أولاده وزوجته أنه يعانى الذهول وفقدان الوعى فأتوا بالزار الذى اندمج فيه وبعد أن أفاق صاح قائلا «مراتى حبيبتى - ولادى حبايبى» فقالت كودية الزار «ده معمول له عمل ليتزوج على مراته وعملت له حجاب».

وإذا كانت علاقات الحجاوى بمطربته الأولى خضرة تحمل الكثير من الالتباس فإن علاقته بالرئيس السادات تحمل المزيد من الالتباس

حيث تعارفا قبل ثورة يوليو بعدة سنوات.. وبعد رحيل الحجاوى حضر السادات عرض «عاشق المداحين» تأليف يسرى الجندى وإخراج عبدالرحمن الشافعى وقرر إطلاق اسمه على مسرح السامر.. كما قرر منح جائزة سنوية فى الفنون الشعبية تحمل اسم زكريا الحجاوى والذى قال عنه السادات «إن زكريا الحجاوى من القلائل الذين أعتز بصداقتهم.. إنه من الفنانين الذين يتركون بعد رحيلهم أثرا لا يمحى».

وبرغم كل هذا فقد تم فصل الحجاوى من جريدة الجمهورية التى كان يشرف عليها السادات بعد الثورة مباشرة.. ومع تولى السادات الحكم أوائل السبعينيات تم فصل الحجاوى من وزارة الثقافة ليرحل حزينا إلى دولة قطر ليعمل مستشارا للفنون الشعبية بوزارة الإعلام من ١٩٧٢م - ١٩٧٥م وليبدأ مشروعه الطموح بجمع التراث الشعبى فى الخليج وليقدم حديثا أسبوعيا فى التليفزيون القطرى.. ولم يعد من قطر إلا جثة هامدة بعد أن فاضت روحه إثر أزمة قلبية يوم ٧ من فبراير ١٩٧٥م، وهكذا رحل زعيم دولة الحكائين وترك لنا تراثا مهولا فى بطون الصحف وأشرطة الإذاعة أما كتبه فهى قليلة:

مجموعته القصصية نهر البنفسج ومسرحيته بجماليون وكتابه المهم «ملك ضد الشعب» والذى قدمه فى عام ١٩٥٢م ليكشف من خلاله عن ثورات وانتفاضات الشعب المجهولة فى بطون الريف ضد الإقطاع والملكية والاستعمار.

لقد رحل الحجاوى قبل أن يكمل مشروع عمره «موسوعة التراث الشعبى» حيث أنجز الجزء الأول منها ونشرته دار الكاتب العربى عام ١٩٦٨م فى ٤٠٠ صفحة بعنوان «حكاية اليهود».

وله كتاب كبير عن مصر لم ير النور وكذلك كتابه عن سيد درويش.. رحل الحجاوى الذى حول الموالد إلى مؤتمرات شعبية.. والذى علمنا أن تطوير الفولكلور جريمة وأن الاقتباس سـرقة.. كما وضع يدنا على كثير من السرقات الغنائية التى ينسبها البعض لأنفسهم برغم أنها من التراث الشـعبى مثل «قولوا لعين الشـمس ماتحماشـى» وغيرها الكثير.. رحل الحجاوى السـاخر صاحب الضحكة السـاحرة والذى لم تهزمه الحياة برغم قسـوتها فظل طوال الوقت يزرع التفـاؤل والحب ويصادق الأمراء والصعاليك والقضاة والمجرمين.

رحـل الحجاوى شـاعر الغلابـة والفلاحين والحضن الأوسـع لكل الموهوبـين والواعديـن.. والراهـب المتبتل فى محراب الفن الشـعبى.. والفارس السمح الودود.. والمناضل العنيد.. فريد عصره.. فقد كان نسيجا وحده.. تعامل مع الفن الشـعبى باعتبـاره وظيفة حياة وكأنه التنفس.. يمارسـه بمتعة حقيقية على مدار ساعات اليوم شريطة أن يكون مخلوطا بطين الأرض وممزوجا بعرق المداحين الجوالين الشقيانين.

رحل الحجاوى عاشـق الحياة والناس.. فعلى مسـرح الحياة يصل الليـل بالنهار ويرفض النوم.. ويعيش دوما وسـط الناس.. يكره الوحدة ويرى الموت فى السكوت.

رحـل الحجاوى وفى حلقه غصة وفى قلبه مـرارة حيث كان يردد دومـا: «مـن المخزى أن أجد تقديرا خارج بـلادى لا داخلها» كما كان يردد من شعر المتنبى:

هكذا كنت فى أهـل وطنـى   إن النفيس غريب حيثما كانا

رحل الحجاوى الذى كان يقول عن سيد درويش «معاه دكتوراه من الله» والحجاوى نفسه «معاه أكثر من دكتوراه من الله» فقد كان دنيا كاملة.. وعالما كاملا يموج بكل صنوف المواهب والمتاعب.. كوكتيل مواهب.. فهو الرسام والموسيقى الملحن والشاعر وكاتب القصة والصحافى والباحث.. وقد كان تنوع مواهبه سر خصوبته وعمقه وسحره وكان أيضا ضياعه وعذابه ولكنه فى الحالتين كان صاحب نفس راضية تفيض بالحب والإنسانية.

□□□